جامعة المنوفية

كلية الآداب

مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

السنة ٢٣ العدد (٩٠) يوليو ٢٠١٢م

مجلة فصلية محكمة

http : // Arl.menofia . edu. eg *** E- maii: rgfa2012@ Gmaii.com

Scanned with CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

تأسيسات منهجية

خصوصية بلاغة القرآن الكريم

(٢)

د. عيد بلبع

ما هي خصوصيات النص القرآني التي تدفعنا إلى القول بخصوصية بلاغته ؟

لعله من الأنسب أن نبدأ بالتساؤل: ما الخصوصيات التي تتوافر للاستعمال البلاغي للغة وتجعلها تختلف عن الاستعمال التواصلي اليومي؟، فإن هذا السؤال يضعنا أمام فكرة البلاغة بصورة عامة، ثم ننفذ من هذا السؤال إلى سؤال آخر يتحدد في: هل تتفق الظاهرة البلاغية في أنواع الخطاب كافتها ؟ أي: هل تتفق الظاهرة البلاغية في الشعر والخطابة والرسائل والحديث النبوي والقرآن الكريم؟

لو قلنا نتفق، فهذا يعني أننا نسوّي بين أنماط الخطاب المختلفة، وهذا يعني أننا لا نفرق بين بلاغة القرآن وبلاغة الشعر مثلا، ولو قلنا بهذا لما أصبحت هناك خصوصية لدراسة البلاغة القرآنية أو بلاغة الحديث النبوي الشريف، إذن لن نقول بهذا، وامتناعنا عن القول بهذه التسوية واتفاقها، وامتناعنا عن القول بعدم التفريق يعني إقرارنا بأن هناك خصوصية للظاهرة البلاغية في كل خطاب ، ونبدأ بالإجابة على السؤال الأول: ما الخصوصيات التي تتوافر للاستعمال البلاغي للغة وتجعلها تختلف عن الاستعمال التواصلي اليومي؟ لأنه مقدمة ضرورية للإجابة على الأسئلة الأخرى .

إن أول ما أود أن ألفتك إليه هو أن هذه الخصوصية تتعلق بالغاية من الكلام، وعلى هدي من هذه الحقيقة نرى أن الاستعمال التواصلي اليومي لا غاية له إلا التواصل بين الناس عن طريق الوسيط اللغوي، وهذا يعني أن اللغة وسيط ليست غاية، فهي إذن ليست مقصودة لذاتها، ولكنها مجرد وسيلة لتحقيق هذا التواصل، ومن ثم فإنها تقف عند حدود المعنى الحرفي، وإذا فارقت اللغة في الاستعمال التواصلي اليومي المعنى الحرفي فإن هذا يترتب عليه شيء من الإرباك. فترانا نسأل المتكلم ماذا تقصد بقولك؟ وليس هذا الإرباك إلا نتيجة

Scanned with CamScanner

لتجميل اللغة معاني مضمنة فوق المعنى الحرفي، من مثل معاني اللوم والتوبيخ والاعتراض والحث وغيرها مما يدخل في ضرورة الوقوف على السياق لمعرفة قصد المتكلم مما يقول، ثم إن هذه المعاني الإضافية المضمنة في القول تدخل باللغة -حتى لو كانت عامية- في مستوى من مستويات الاستعمال البلاغي.

وتأسيساً على هذا نقول: إن اللغة في الاستعمال البلاغي تتجاوز المعنى الحرفي لإنتاج معان مضمنة، هي ما أطلق عليها عبد القاهر معنى المعنى، أو المعاني الثواني، ونظرية معنى المعنى هي من أهم ما أُثر عن عبد القاهر الجرجاني في مناقشته لخواص تراكيب البلغاء، ومن هنا ننتقل إلى السؤال الثاني: هل تتفق الظاهرة البلاغية في أنواع الخطاب جميعها؟ أي هل تتفق الظاهرة البلاغية في الشعر والخطابة والرسائل والحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم ؟

ونعود إلى تأكيد ما قلناه في مستهل الإجابة عن السؤال الأول عن تعلق خصوصية الاستعمال البلاغي واختلافه عن الاستعمال التواصلي اليومي المباشر بالغاية من الكلام ؛ لأن التفريق بين الاستعمال البلاغي في أنماط الخطاب المختلفة يتعلق أيضاً تعلقاً وثيقاً بغايات الخطاب، ومن ثم فإن السؤال الذي ينطلق منه البحث البلاغي في القرآن الكريم يتعلق أولا بالغاية ويتعلق ثانياً بالكيفية، فالغاية تحدد لنا غرض البحث البلاغي، والكيفية تحدد لنا كيفيته، وتفصيل ذلك على النحو التالي ومن الله المنة وعليه التوكل وبيده الفضل ونعوذ به تعالى من حرمان التوفيق:

أما فيما يتعلق بالغاية فقد أشرنا في كتاب: " مقدمة في نظرية البلاغة النبوية " إلى أن " وضعَ الباحث نصب عينية الغايةَ من الخطاب الذي يمثل مادة التحليل الذي يقوم به يُعدُّ أحدَ أهم المبادئ النظرية التي تؤسس لعملية تحليل دقيقة لأن مراعاة هذه الغاية يحدد للباحث عن أي شيء يبحث ؟ ومن ثم يحدد له الغاية من عملية التحليل البلاغي الأسلوبي التي يقوم بها " [1]، أؤكد هذا القول لأنه ــ في ظني ــ من أهم أعمدة منهج البحث البلاغي بصورة عامة، فإذا ما انتقلنا إلى تأمل الغاي

[1] راجع للمولف مقدمة في نظرية البلاغة النبوية الفصل الأول من الباب الثالث.

Scanned with CamScanner

من القرآن الكريم، فإنه من المؤكد الذي لا يختلف عليه اثنان أن الغاية الأم للقرآن الكريم هي التمكين لدينٍ في الأرض، وأن الاستعمال الخاص للغة هو وسيلة هذا التمكين، وهذا التمكين يأتي على مستويات متعددة:

– فمنها التمكين للدين وللقرآن نفسه في نفس الإنسان المكلف بتلقي الرسالة وتبليغها .

– تأكيد الموقف المحايد للمكلف بالرسالة – صلى الله عليه وسلم – من الرسالة في تلقيها وتبليغها وبيان كيفية التبليغ، ومنهج الدعوة، الذي يقوم على أنه – صلى الله عليه وسلم – لا يهدي من أحب، ولا يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، ولا يحزن على من لم يؤمن .

– تحديد موقفه من الذين استجابوا وممن لم يستجيبوا .

– دعوة غير المؤمنين بالدين بالخطاب المباشر .

– دعوة غير المؤمنين بالخطاب عن طريق الرسول بمقول قول الأمر بالفعل: قل.

– دعوة الذين أسلموا والذين آمنوا إلى مقتضيات ما أسلموا له وما آمنوا به.

فهو بالنسبة للمخاطبين به : بيان للناس، وهو ذكرى للمؤمنين، وهو تذكرة لأولى الألباب، وبذلك نرى أن هذه الأمور مجتمعة من مقتضيات النفس البشرية تمثل تحدياً للنص، ومن ثم يأتي البحث في كيفية أداء هذا الاستعمال الخاص للغة أحد أهم الأصول النظرية لمعالجة بلاغة النص القرآني .

ثم إن القرآن الكريم إلى جانب هذا خطاب متعدد الأبعاد:

– البُعد الإعجازي

– البُعد التعليمي

– البعد الحجاجي

– البعد الجمالي

وهو في تحقيق هذه الأبعاد خطاب مركب معقد؛ إذ لا تنفصل غاية عن أخرى، فصياغة ما يحقق البعد التعليمي ينطوي في الوقت نفسه على البعد الإعجازي كما ينطوي على البعد الجمالي ولا ينفصل عن البعد الحجاجي، ولكن على الرغم من غائية البُعدين الحجاجي والجمالي فإنهما دون مستوى غائية البُعد

Scanned with CamScanner

الإعجاز؛ لأن البعد الحجاجي ليس غاية مطلقة وإنما لا يلبث أن يتحول إلى وسيلة تمكينية، تتبعها بدورها تمكين حقائق عميقة الوقع في نفوس المتلقين على مختلف مستوياتهم، ثم إن البعد الجمالي لا يلبث أن يتخلى عن غائيته ليتحول إلى وسيلة تسويغية تحقق بعداً تواصلياً، إن البحث في هذه الأبعاد جميعاً أو فرادى بحث مشروع ومبرر معرفياً، بيد أن البحث في إحدى هذه الغايات على أنها الغاية التي ليس وراءها غاية ينظر إلى المشروعية، ومن ثم يخطئ من يقارب النص القرآني بحثاً عن الغاية الجمالية فقط؛ لأنه بذلك يختزل النص — بقصد وبغير قصد — إلى غاية إمتاعية خالصة، ولا أرى هذا المسلك مبررا إلا عند غير المسلمين المؤمنين بالقرآن كتاباً معجزاً من عند الله، فهم الذين يسوغ لهم النظر إلى القرآن على أنه نص فني جمالي.

إن الخطاب القرآني مواجهة بصعوبات وتحديات هو الموجد لها وليست مفروضة عليه، وليس ثم من شك في أن هذه الصعوبات والتحديات منشؤها طبيعة الخطاب، ومن أخطر هذه الصعوبات والتحديات ما يلي:

– صعوبة تتعلق بالبعد الغيبي، إذ ليس من اليسير أن يؤمن الإنسان بشيء لم يره فهو يقع خارج عالم الشهادة، ومن ثم نجد التأكيدات والظواهر البلاغية التي تدعم الحجة لتأخذ سبيلها إلى توثيق الدعوة للتوحيد، والدعوة للإيمان بالغيب، والإخبار عن الغيب في الماضي وفي المستقبل، والأمر في الحقيقة لا يقف عند حدود الإقناع لغير المؤمنين، بل يتعدى هذا إلى حمل المؤمن على تمثل بعض هذه الأمور الغيبية وتصورها في ذهنه.

– صعوبة تتعلق بالدعوة إلى معتقد، فإن الغاية في هذه الحالات وأمثالها إنما هي في الحقيقة نزع معتقدات وقَرّتْ في القلوب وسكنت في النفوس وتوارثها الحاضرون الشاهدون عن آباء لهم عندهم إعزاز يصل إلى القداسة في مجتمع قبلي يتخذ من الانتماء دستوراً للحياة، ثم إقرار عقيدة بديلة في القلوب ذاتها.

• صعوبة تتعلق بديمومة التواصل، على مختلف الأزمان وتفاوت الأعمار وتباين الوعي باللغة من المتلقين الذين هم أبناء اللغة نفسها.

Scanned with CamScanner
Scanned with CamScanner

* صعوبة تتعلق بمقاومة نوازع النفس البشرية.

* التخلي عن نوازع النفس في الاستمساك بالرأي الفردي .

* التخلي عن الملكية الفردية لصالح الجماعة (الزكاة، الصدقة، الكرم) .

* التخلي عن متطلبات النفس البشرية التي تتفاوت من ترك راحة البدن بالنهوض إلى الصلاة ليلا ونهارا، ثم لتبلغ أقصاها في الجهاد والأمر بالقتال، والإقناع ببذل النفس والتهيؤ للقتل .

* التخلي عن متطلبات النفس البشرية بالامتثال للنهي عن المحرمات، ففيما يتعلق بالمال: البخل، الظلم، أكل المال (اليتيم)، الربا، الغش، الاستغلال والاحتكار، وغيرها.

* التخلي عما وقر في النفس البشرية من نوازع الثأر، بل التخلي عن القصاص المشروع بالتأسيس للتسامح والعفو .

فكيف يمكن لهذا الاستعمال الخاص اللغة في الخطاب القرآني أن يتغلب على هذه الصعوبات، ثم يحقق النتيجة التي نزل من أجلها ؟

كيف يمكن لهذا الاستعمال الخاص للغة في النص القرآني أن يحتفظ لا نقول بتواصله اللغوي بل بتواصله الإعجازي، وإقراره الحقائق في النفوس والتمكين لها في القلوب ؟ فلا نقول كيف حقق التواصل مع الذين نزل على مقربة زمانية مكانية منهم، ولكن كيف يحقق التواصل عبر الزمان والمكان ؟

ليس ثم من شك في أن هذا الاستعمال الخاص للغة يتطلب من دارسي البلاغة التأهب لخصوصية في الرؤية تتناسب مع خصوصية الخطاب .

ومن هنا نقول بالتنبه إلى وضع الأصول النظرية والقواعد التنظيرية لدراسة البلاغة القرآنية، على ألا تكون هذه الأصول والقواعد مجرد قيود معيارية للرؤية البلاغية للنص القرآني، ولكنها تأتي بمنزلة المبادئ العامة التي تستوعب الرؤى الخاصة، ولا تتنكر للعبقرية الفردية في المعالجة البلاغية للنص القرآني، أي لا تتجاوز الشرطين اللذين نقول بهما دائما: المرونة والنسبية .

Scanned with CamScanner

ليس ثم من شك في أن هذه الغايات بحاجة إلى خطاب يتحقق بـه هـذا التهيؤ الذي يتنافى مع متطلبات النفس البشرية .

ومن الحقائق التي تتعلق بالخصوصية والمرونة معاً فيما نقول بـه في المنطلقات النظرية لدراسة البلاغة القرآنية أن هذه الخصوصية ليست للنص القرآني لانفراده بخصائصه عن أنماط الخطاب المختلفة، ولكنها أيضاً خصوصية تتعلق بالبُعد البلاغي الواحد بين السياقات المختلفة في النص القرآني نفسه. فثم سياقات داخلية ينفصل بعضها عن بعض انفصالا جزئياً يتعلق بالمناسبة أو يتعلق بالمخاطب أو بالمخاطبين، ولا يرجع هذا إلى أن خطاب المشركين والكافرين يختلف عن خطاب المؤمنين فقط ولكن هذا الاختلاف يتعلق أيضاً بمخاطبة درجتين متباينتين من المؤمنين، وسأقف بك على ثلاث صور من الاختلاف السياقية التي يتبعها اختلاف في الظواهر البلاغية:

١ ـ اختلاف التراكيب في معالجة الموضوع الواحد من سياق إلى آخر.

ونعني به رصد المتغيرات الأسلوبية تبعاً لتغير السياق .

٢ ـ اختلاف الأمثال المتشابهة التي تعالج قضايا متقاربة من سياق إلى آخر في العناصر المكونة للمشبه والمشبه به، وكذا في التراكيب النحوية.

٣ ـ اختلاف القصة الواحدة من سياق إلى آخر في المشهد المختار من القصة، وكذا في أسلوب عرض هذا المشهد من القصة من حيث الطول والقصر، ومن حيث أساليب العرض

ويراعي المنهج في هذا البُعد خصوصية السياق، فمستويات وس[...] التأثير الأسلوبية البلاغية مرتبطة بالسياق والغاية، ومن ثم فإن الس[...] الأسلوبية الخاصة هي سمات سياقية، نعني بهذا أن رصد هذه السمات وتحلي[...] إنما يكون على هدي من غاياتها السياقية التي تتحدد بالإنسان المق[...] بالمخاطبة، كما تتحدد بالمقتضى (التعليمي أو الإقناعي) المقصود من المخا[...] أي بالقضية التي تمثل موضوع الخطاب، وثم دوائر سياقية نأخذها في حساب[...]

ـ دائرة سياق الموقف والموضوع داخل السورة.

ـ دائرة سياق السورة.

Scanned with CamScanner

- دائرة السياق القرآني كله.

- سياق ترتيب المصحف بوصفه سياقاً لغوياً عاماً.

- سياق ترتيب النزول بوصفه سياقاً خارجيا يرتبط بأسباب النزول.

إن القرآن الكريم حجة مركبة، ربما لا أجد حرجاً إذا قلت حجة مركبة أشد تركيب ولكنها محكمة أشد إحكام، فالخطاب ضمنيا يحمل عدة رسائل، يحمل عدة مستويات حجاج أي عدة مستويات للإقناع، فالقصص والحوارات المحكية تتوزع بين رسائل وغايات:

- الغاية التمكينية وتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم بالقصة نفسها .

- الصياغة نفسها صياغة معجزة، أي هذا الكلام بهذه الطريقة، بهذا الأسلوب والكيفية في النظم يحمل رسالة أخرى، أولا للنبي صلى الله عليه وسلم، غايتها التمكين لحقيقة القرآن وإعجازه في نفسه .

- لا ننسى أن الصياغة القرآنية بصورة عامة ومطلقة للتحدي، إذ يتحقق الإعجاز فيها، فهي رسالة للناس كافة .

- إن الصياغة تؤدي دوراً سياقياً متوائماً مع موضوعات السورة وأهدافها بوصفها سياقا، وضمن السياق الأكبر (القرآن الكريم) .

- ثم إنها في الوقت نفسه تؤدي دوراً سياقياً يتعلق بالنزول توقيتاً وأسباباً ولا يقتصر هذا على القصص بل نجد هذا أيضاً في الآيات التشريعية.

فكيف تكون الرسائل مركبة ومن ثم الحجة:

- رسالة التمكين لحقائق في نفوس المسلمين تتعلق بالأحكام والشرائع

- رسالة تأكيد إحكام الصياغة وطواعيتها ضمن المنظومة التشريعية

- رسالة لغوية على درجة خاصة من البلاغة تحقق البُعد الجمالي .

- هذه الرسالة اللغوية نفسها تبلغ درجة أعلى هي درجة الإعجاز .

Scanned with CamScanner